الإسلام حضارة وتاريخ

أ.د/ عبد الحليم بوزيد

كلية العلوم الاجتماعية

والعلوم الإسلامية

إن الإسلام له تاريخ قائم في هذه الأمة إلى يوم الدين إلى أن تاريخ حضارتهم لم يكتب بعد، أو انه كتب بأساليب أخرى .

ويشير صاحب هذا الرأي إلى تفسخ الأخلاق في المجتمعات العربية والإسلامية، وعدم إقبال الشباب فيها إلى دراسة تاريخية، ومعرفة ماضيه، والافتداء بأسلافه في المحافظة على روح العبادة وأعمالها، ويستدل بهذه المظاهر على تأثر الشباب المسلم بكون التاريخ الإسلامي لم يكتب بعد و لم يترجم إلى باقي الشعوب.

وقد صدق صاحب هذا الرأي فيما تحدث عنه من مظاهر الانحراف في المجتمعات الإسلامية، وكان حديثه بذلك ينم بذلك ينم عن غيرة وحسرة تشكران له كما كان الحديث نفسه يحمل بين كلماته الروائع استغاثة واستصراخا يدلان على إحساس بالنكبة، وشعور بالمسؤولية الفكرية، واهتمام بواجب النجدة في الحضارة الغربية.

وسأشير بإيجاز إلى بعض الأساليب والعوامل التي تدل دلالة واضحة على عكس ذلك الرأي، وتثبت أن تاريخنا لم يقرأ بعد، وانه مدون مكتوب بأقلام طاهرة.

أولا: إن القول بان تاريخنا لا يستطيع الجيل الناشئ أو الصاعد أن يقرأه لقدم أساليبه وغرابة معانيه، وصفرة كتبه وأوراقه التي كتب عليها، وسوء تربية. سيدحض هذا الزعم أن تاريخ العروبة المسلمة قد أعيدت كتابته بلغة العصر الحديث وأسلوبه منه سنوات عديدة مضت ممثلة في مؤلفات ابن خلدون، وابن باديس، والبشير الابراهيمي، والتوفيق المرني أمثالهم ممن وضعوا احسن الكتب عن التفسير والحديث، والتشريع، والتاريخ السياسي، والنظريات الاقتصادية الإسلامية، وعن الدراسات المقارنة بين الفكر الإسلامي والفكر العربي الحديث ... بحيث لم تعد حجة المنذرين " بالكتب الصفراء" القديمة ... قائمة كما يزعمون.

ونضيف إلى ذلك المجلات الشهرية الحديثة التي تصدر في العالم الإسلامي ويعرض كتابها (تاريخنا) بكل فنونه العلمية والتشريعية والتربوية والأخلاقية والفكرية عرضا جديدا بأسلوب شائق مفهوم – المسلمون وحضارة الإسلام – والبعث الإسلامي – والرابط – ولواء الإسلام – والمجتمع – ودعوة الاخوة- والتضامن الإسلامي – والفكر الإسلامي – ومجلة الأصالة وهي كافية وكل الكفاية في إقناع الشباب الإسلامي بقيمة التراث العظيم الذي خلقه العرب والمسلمون من معارف ومبادئ وثقافات سبقت كما أسلفنا معارف الغرب ومبادئه وثقافته، واعتمد الغرب عليها في سيرة العلمي، وتطوره الفكري، وتقدمه الحضاري كما هو الآن يعترف بذلك .

ونذكر إلى جانب الكتب والمجلات الحديثة التي عرضت التاريخ الإسلامي عرضا جديدا، ميسور الفهم: المقررات المدرسية في العلوم العربية

والأحداث التاريخية ... فهي الأخرى قد ساهمت في تقريب التاريخ الإسلامي، وتيسير فهمه، والتشويق إلى مطالعته ودراسته.

ثانيا: إن تاريخنا مدون ومكتوب في مطولات ومختصرات لكل منه فائدتها ونفعها، ولها قراؤها الباحثون الدارسون على مهل وتفكير واستنباط، والمستعجلون المكتفون بالاعتماد على الغابرين، الملتمسون للاستدلال بآرائهم ونظرياتهم.

ثالثا: إن أحجام الشباب والطلاب أو حتى الشيوخ والكهول عن قراءة تاريخنا والاتعاظ به والانفعال بوحيه وهديه، ليس حجة على الرداءة في كتابة التاريخ أو صياغته، آو انه غير كامل أو غير واضح وانه محتاج إلي كتابة جديدة .. فقد أسلفنا إن تاريخنا مدون ومكتوب في المطولات والمختصرات من ناحية، ومن ناحية أخرى قد عرضه الكتاب المحدثون عرضا جديدا مع التحقيق والتصحيح والطبع الأنيق، ونشرته دور الطباعة في العالم العربي كله، وخاصة في القاهرة وبيروت.

رابعا: أن الإحجام عن قراءة التاريخ الإسلامي هو نتيجة لتصرفات مؤسفة صنعها المسلمون أنفسهم وخلقوها بأيديهم .. إذ لم يوجه الآباء والمربون والمعلمون اهتمامهم المخلص إلى توعية الطلاب تاريخيا، وإغرائهم بقراءة تاريخهم ومراجعة تراثهم الحضاري، وحملهم تلقائيا على الانفعال بالأمجاد الإسلامية السالفة ... حتى انصرفوا إلى ملء فراغاتهم الطويلة العريضة بالاستماع إلى الإذاعات ومشاهدة التلفازات التي تنقل الخير والشر، ومطالعة الصحف والكتب التي تروي قصص الجنس، وتنشر صوره، وتحض على ممارسة تجاربه

خامسا: إن وزارات التربية والتعليم والإعلام في البلاد الإسلامية عامة ليست براءة من مسؤولياتها عن توجيه الشباب والطلاب إلى دراسة تاريخهم، والانفعال بأمجاده والمحافظة على تقاليده وآدابه بل هي ساهمت في هذا الهبوط.

سادسا: إن الآباء في بيوتهم مسؤولون بصفة خاصة عن تربية أبنائهم تربية إسلامية تمنحهم شخصية إنسانية مستقلة لا تذوب في تقاليد الشعوب الأجنبية الأخرى، ولا تتماع في اتجاهاتها الفكرية والاجتماعية. ولعلنا لم ننس وصايا الرسول ﷺ: ﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمسجانه[1] ﴾.

والتوجيه النبوي الآخر: ﴿ مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر ﴾[2]، فالآباء وأولياء أمور الطلاب والشباب - لا التاريخ المتهم البريء- هم المسؤولون عن إهمال الجيل الناشئ أو الصاعد كما يسمونه تجوزا أو تفاؤلا – لكل تقاليده الدينية والقومية، وجهله بالتراث الفكري و الحضاري للإسلام. وهم أولئك الآباء وأولياء الأمور مطالبون بالوقت بان يكونوا قدوة حسنة لابنائهم، وبناتهم فان الأطفال يتأثرون بالأسوة العملية في ساداتهم وكبرائهم اكثر مما ينفعلون بما يقرأ عقلهم أو يكتب لهم، أو ينصحون به.

سابعا: آن أوروبا في عصورها المظلمة (الوسطى) قد اقتبست من تاريخنا وهو لم يكتب بعد كما هو الآن، وانتفعت بحضارتنا العربية الإسلامية، ونقلت علومها وفنونها وآدابها ونظرياتها الأخلاقية والحربية والسلمية. كما يعترف بذلك كثير من المفكرين والمؤرخين الغربيين أنفسهم[3].

فكيف يقال أن تاريخنا لم يكتب بعد؟ الواقع إننا نحن مسئولون عن عدم انفعال شبابنا بتاريخنا العظيم. ومثلنا في إلقاء التبعة على (التاريخ) واتهامه بالعجز والتقصير كما قال الشاعر الحكيم

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب.. سوانا

أمثلة وأدلة على سبقنا الحضاري:

وأعود إلى الدافع الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، وهو انصراف الجيل المسلم الناشئ عن معرفة التاريخ الإسلامي، بكل مجالاته وفنونه التشريعية والاجتماعية والفكرية والعلمية، ثم اهتمامه بأفكار الغير وآدابه ونظرياته واعتناقه لها وتغنيه بها – دون إدراك منه أو وعي بان المسلمون هم السابقون إلى هذه الأفكار والآداب والنظريات والى ما هو خير منها ودافع آخر الهجمة الاستعمارية بعد أحداث 11 سبتمبر بعد احتلال أفغانستان والعراق الخ ...

في مجال علم النفس:

ولقد ظهرت في الغرب حديثا نظرية (القيم) في علم النفس، وصاحب هذه النظرية هو العالم النفساني (بيير) وهي باختصار نظرية تقوم على أساس الوعي بالقيمة التي يتأثر بها سلوك الفرد، أي أن " القيمة" هي علة السلوك عند الإنسان وليس الجنس، كما ذهبت إلى ذلك خطأ نظرية فرويد.

وعلى هذا المفهوم القيم يكون مصدر السلوك عند الفرد إنسانيا وليس طبيعيا. ويضرب شراح هذه النظرية مثلا عليها: " المفكرة" الذي يجوع ويرتدي الثياب الرديئة ليشتري بما معه من مال كتابا يقرؤها وينتفع

بها علما وزفهما، ويعلقون على ذلك لان قيمة العلم عند رجال الفكر اعظم من الآكل الهانئ و الثوب الأنيق.

بعد فراغي من دراسة هذه النظرية العلمية الحديثة التي ردت للإنسان كرامته وحقيقة نفسه العاقلة ... وبعد أن أهانها فرويد حين الصقها بالتراب، ولوثها بالجنس الحيواني، ونسب إليه كل سلوكها وتصرفاتها وأطماعها.

أقول بعد انتهائي من مطالعة بحث مطول في نظرية القيم هذه تداعت المعاني في ذهني، وتتابعت الذكريات لما قد أنسيته من أقوال وأمثال عربية و إسلامية حملت معنى نظرية القيم التي طلع بها الآن العالم النفساني (بيير).

اجل حملت الأقوال والأمثال العربية والإسلامية هذا المعنى بأسلوب تصويري رائع، يحمل القارئ أو السامع على التأثر والانفعال بالمبدأ الشريف أو الخلق الإنساني السامي، الذي ينطوي عليه أو يدعو إليه.

فالمثل العربي المعروف " تجوع الحرة ولا تأكل بثديها" يعني في وضوح وجلاء: إن قيمة العفة عند الحرائر أسمى و أولى بالطلب والحرص والحفاظ من قيمة المال أو الطعام الذي تحصل عليه المرضعة أجرا على إرضاعها أولاد غيرها.

وموقف خالد بن الوليد القائد الإسلامي المعروف بعد أن عزله[4] عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني له من قيادة الجيش في موقعة اليرموك، صورة مشرفة لنظرية القيم، فقد جاء أنصاره غداة عزله يتحدثون إليه عن شجاعته وبطولته وحسن بلائه، ويستنكرون رضاءه بما حدث له، ويحرضونه على عصيان أمر الخليفة، ويعدونه بأنهم سيكونون معه ... فيأبى

عقل خالد الراشد، وإيمانه الوثيق، وإخلاصه العميق لديه، وإدراكه السليم لقيمة الجهاد في سبيل الله – يأبى خالد أن يشق عصا الطاعة على أمير المؤمنين.. ويرضى بان يبقى جنديا من عرض الناس يقاتل في جيش المسلمين تحت قيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح .. ويقول قولته المشهورة التي ذهبت مثلا رائعا حقيقيا وواقعيا على نظرية القيم:

(أنا لا أقاتل في سبيل عمر ولكن في سبيل رب عمر)[5].

وللقاضي الجرجاني قصيدة ميمية معروفة، كانت مقررة للتدريس والحفظ على عهدنا الغابر ... وهو يتحدث فيها عن كرامة العلم ومكانة العلماء الرفيعة، وعن عزة النفس و إباء الضمير، ومن بين أبياتها الروائع بيت يحمل معنى (نظرية القيم) ويصورها أيضا، فهو يقول:

إذا قيل هذا منهل قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظمأ

ويزيد هذا المعنى القيمي تصويرا وتفسيرا بقوله:

و لم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

أأشقى به غرسا و أنيه ذله إذن فاتباع الجهل قد كان احزما

إن القاضي الجرجاني في قصيدته هذه يرى أن " قيمة" عزة النفس وكرامة العلم اكبر واجدر بالحفاظ عليها من " قيمة" الماء يطلبه لظمئه إذا كان لا ينال إلا بذلة وهوان، أو في أي صورة أخرى من صورة النفاق والتقرب إلى الأمراء والكبراء، وليس (الماء) مقصودا على الحقيقة و إنما ضربة مثلا لأهم ما يحتاجه الحي فكيف بما هو دونه ضرورة واحتياجا من مطالب الدنيا واحتياجات الحياة؟

وكما عبر الجرجاني عن نظرية (القيم) بمسكله في اعتزازه بنفسه، وفي إبائه على علمه أن يبتذل في خدمة الكبراء والأمراء، وفي تصويره لهذا

المعنى السلوكي الكبير باحتمال الظمأ دون التماس الماء الراوي على مذلة وهوان – كما فعل الجرجاني ذلك فعل من قبله الشاعر العربي الشنفري فقال عن نفسه:

واستف ترب الأرض كي لا يرى له عل من الطول امرؤ متطول

وهكذا يصور الفكر العربي الإسلامي نظرية (القيم) في أروع صورها خلقية علمية.

فالقائد المجاهد المخلص يقاتل في سبيل الله، لا في سبيل الحاكم أو الخليفة أو أمير المؤمنين، والمرأة الحرة تجوع ولا تأكل من تأجير ثدييها، والعالم الكريم يرتفع بنفسه وبعلمه الذي شقي في بذره وغرسه: إن يجنيه ذله وهوانا، ويستف العزيز الأبي تراب الأرض ولا يطلب طعاما يتطول به المطعم عليه.

ولحاتم الطائي قصيدة رائية ترويها الألسنة وتشدو بها الإذاعات بأصوات المغنيين – يقول فيها:

أماوي أن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوي أن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء هناك ولا زهر

ترى أن أنفقت لم يك ضرني وإن يدي مما بخلت به صفـــــــر

في هذه الأبيات الثلاثة تتجلى نظرية القيم باجلى واجمل صورها ومعانيها، فسلوك حاتم الطائي في طريق الكرم ذلك السلوك الذي يضرب به المثل، وتروى عنه القصص: كان نتيجة لتصوره أن المال غاد ورائح، وان ما يبقى ويخلد: هو الذكر الحسن والسمعة الطيبة ... وقد صور في البيتين الأخيرين أدق تصوير حالة الإنسان بعد موته حيث لا يضره ما أنفقه في سبيل البر والخير، ولا ينفعه ما بخل به انتهى إلى حفرة من الأرض، وودعه

أهله وولده وذوو قرباه، فرحين بميراثه الذي بخل به في حياته ... ويصف حاتم القفرة ... أي " القبر" بأنها قفراء لا ينبت فيها زهر ولا يجري عليها ماء. ترويعا في تمثيل المصير.

هذه خمسة أمثلة روائع وصور حسان لنظرية (القيم) الحديثة في علم النفس – كان العرب والمسلمون بها وبأمثالها الكثيرة سابقين (لبيير) في تقرير (قيمة) السلوك الإنساني نتيجة للعلة الباعثة إلي اختيار هذا المسلك أو ذاك.

وفي مجال التحليل النفسي لقد عرف " سيجمند فرويد" بأنه أبو التحليل النفسي[6].

والتحليل النفسي هو معالجة مرضى العصاب عن طريق محادثتهم، وإرخاء العنان لهم في هذه المحادثة أو إعطائهم الحرية التامة في الحديث من اجل استخراج الدفينة في أعماق نفوسهم، حتى يتبين للمحلل النفسي سر العلة العصبية التي يشكو منها المريض ... كقسوة الأب مثلا أو عنف الأم في تربية أو معاملته عندما كان طفلا أو حدثا، أو خيبة أمل المريضة في الزواج بمن كان فتى أحلامها، أو نكد الحياة الزوجية التي كان يعيشها الأبوان إلى غير ذلك من أسرار نفسية يكتمها المريض في صدره حياء أو خوفا .. فتنشأ عنها العلل العصبية التي تعي معالجتها أطباء الأجسام.

ولكن سيجمند فرويد ... هذا الذي يعدونه أبا للتحليل النفسي قد سبقه إلى فكرة هذا التحليل والى ممارسته عمليا الطبيب العربي " الحارث بن كلدة" الذي عاش في الجاهلية قبل الإسلام وهو من مدينة الطائف المصيف الحجازي المعروف.

فقد روى الأصمعي أنه: كان فتى من ثقيف، شديد الحياء، كريم الأدب فوجئ أهله بمرضه وتحول جسمه، فالتمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه شيئا و لم يعرفوا له علة ... وعندما أعياهم أمره، واشتد سقمه سلمه أهله إلى الحارث بن كلدة.

ونظر الحارث إلى الفتى نظرة الطبيب الفاحص، فلم يجد به داء يذكر فظنه عاشقا وطلب من أهله أن يخلو به ... وفي خلوته بالفتى سأله عن حقيقة أمره، فأبى أن يعترف له بشيء فجعل الحارث يسأله عن أسماء رجال قومه وأسماء نسائهم، وهو ينظر إلى وجهه حتى جاء اسم زوجة أخيه، فارتاح الفتى وتنفس الصعداء وأدمعت عيناه ... وهنا عرف الحارث سر مرض الفتى واكتشف علته، فأفضى بها إلى أهله. ووافق أخوه أن يطلق زوجته ليتزوجها بعده، ولكن حياء الفتى منعه من ذلك، ودفعه إلى الهجرة عن أهله وبلده.

ولا يفوتنا، ونحن نذكر قصة الفتى الثقفي الذي أحب زوجة أخيه وأصابه ما أصابه من مرض عصبي ونفسي بسبب كتمانه وحرمانه، لا يفوتنا أن نشير إلى الأدب الإسلامي الذي شرعه الرسول الكريم ﷺ في بعض أحاديثه لحماية الأسرة من عواقب الصلات والعلاقات المحرمة المؤثمة، فقد حذر عليه الصلاة والسلام من سفور المرأة واختلاطها بغير محارمها، وأكد التحذير من أخ الزوج وقال عنه: انه هو الموت!![7]

فكيف بالأجانب الذين تختلط بهم الزوجات في صورة زيارات متبادلة بين الأسر؟ تتكشف فيها مواطن الفتنة من المرأة و مباعث الاشتهاء منها، أو اجتماعات عامة على شواطئ البحر وزوايا المقاهي والمنتزهات؟

وفي مجال الاقتصاد والتجارة:

إن ابن خلدون – مثلا – سبق المدارس الاقتصادية الحديثة التي تدعو إلى حرية التداول التجاري، وعدم إيغال الدولة في التدخل والتسلط والتوجيه، وعدم الإسراف في فرض الضرائب، فهو يقول: إن من واجب الدولة أن تتأكد من الضرائب لا تثمر إذا هي فرضت فرضا تعسفيا، وإن الضرائب المعتدلة أعظم حافز على العمل.

ثم يتحدث ابن خلدون بإسهاب – عن المصادرة والاحتكار، وعن إشراف الدولة على شئون التجارة. حتى ينته إلى القول: بأن الدولة إنما تقوم على الشعب وعلى روح الإقدام والمغامرة التي يتحلى بها، وعلى مدى إنتاجه للاقتصاد والتجارة، وتسبب نقصا في الثورة وضعفا في الإنتاج.

وهذا ما حدث ويحث فعلا في تجارب المذاهب الاقتصادية الجديدة من شيوعية واشتراكية. إذ تنقص الثروة ويضعف الإنتاج في الدولة التي طبقت تعاليم ماركس الشيوعية وأحالت المرافق الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة إلى مؤسسات حكومية[8].

وفي مجال التشريع

صدر قبل شهور معدودة كتاب للدكتور بيران وولف سماه (أفضل سنوات المرأة) وتحدث فيه عن الطلاق، واقترح أن تبذل محاولة للشورى والتوجيه بين أهل الزوجين قبل إقدام الرجل على توقيع الطلاق، أو قبل عزم المرأة على طلب الانفكاك من زوجها. ويرى الكاتب الغربي أن يكون الذي يتدخل بين الزوجين المقبلين على الفراق خبيرا محنكا، أو صديقا للطرفين أو رجلا من رجال الدين أو محاميا أو عالما نفسيا. فإذا رئي بعد ذلك أنه لا جدوى أو لا مصلحة في استمرار الحياة الزوجية بينهما فإن الطلاق عندئذ يكون هو الدواء الشافي والحل الوحيد.

ونحن المسلمين نجد تشريعنا الإسلامي قد سبق إلى هذا الرأي الإصلاحي منذ أربعة عشر قرنا: إذ شرع لنا هذا المنهج الاجتماعي في آيتين من سورة النساء في القرآن الكريم أحدهما تقول: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾. والثانية تقول: ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما﴾[9].

إن الدكتور بيران وولف يرى نفس الرأي الذي نزل به القرآن الكريم ووجه به الناس إلى بذل محاولة مخلصة في سبيل التوفيق بين الأزواج المتنازعين، قبل إيقاع الطلاق أو ما يترتب عليه من تشريد الأطفال، وتأييم نساء[10].

وفي مجال الحكم والسياسة:

ويؤيد رأينا في هذا السبق الإسلامي إلى نظرية العقد الاجتماعي – ما تواتر من أحاديث الرسول وآثار الصحابة وقواعد البيعة. من أن (السمع والطاعة) من المحكوم للحاكم إنما هو (في المعروف). وما يشترط الناس على الحاكم حين مبايعته: أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله.

وفي أول خطبة لأبي بكر رضي الله عنه، بعد مبايعته بالخلافة: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم)، وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خطب الناس بعد توليه الخلافة، فقال: (من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه).

فبذلك يتضح أن(الحكم) في الإسلام عقد اجتماعي يتم بين الحكومة والأمة، على أن تكون طاعة الأمة رهنا بقيام الحكومة على العدالة والمعروف.

وقد أثنى " هنري لاووست" في كتابه (المدخل إلى دراسة الدين الإسلامي) على هذه الواقعية السياسية في نظام الحكم الإسلامي، التي تأمر – على حد تعبيره – بطاعة السلطات الحاكمة ما دامت لا تأمر بعصيان الله ورسوله: إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[11].

وفي مجال التخطيط العمراني:

تظن أجيالنا الناشئة أو الصاعدة أن ما يسمونه " تخطيط المدن" من مبتدعات العصر الحديث، وأنه من ابتكارات الحضارة الغربية العصرية، ويعتذر لهم عن خطأ هذا الظن بعض الكتاب فيزعمون بأن تاريخنا الإسلامي لم يكتب بعد، حتى يقرأه الجيل الصاعد، ويعلم به ما جهل من سوابقنا الحضارية..

إن تخطيط المدن.. الذي يعني تنظيم العمارات والشوارع والطرقات والميادين والحدائق العامة – قد عرفته عهود الصحابة رضي الله عنهم كما يروي القاضي أبو يعلي في كتابه (الأحكام السلطانية) إذ يقول : لقد مصر الصحابة البصرة على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجعلوها خططاً لقبائل أهلها، وجعلوا عرض الشارع الأعظم ستين ذراعاً، وجعلوا عرض ما سواه عشرين ذراعا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لربط خيلهم.

ويلاحظ أن الرحبة الفسيحة التي يذكرها أبو يعلي في تخطيط البصرة هي (الميدان) في تخطيطنا الحديث، وهو ما يخصص جزء منه موقفاً للسيارات وما بقي مداراً لحركة المرور.

وكذلك فعل عمرو بن العاص -حاكم مصر- عندما أنشأ مدينة الفسطاط، فقد أحسن تخطيطها، وتنظيم طرقها وشوارعها ومنازل القبائل فيها[12].

ويتحدث الأستاذ حيدر بامات في كتابه (دور المسلمين في بناء المدينة الغربية) عن الهندسة المعمارية الإسلامية التي اقتبس الغربيون جمالها ونسقها العربي ويشير إلى مدينة الزهراء التي بناها "عبد الرحمن الناصر" في الأندلس، وإلى قصر الحمراء بها.

ويقول إن الفن الإسلامي المقدس الذي يتجلى في المساجد هو الذي يشهد بعظمة الماضي الإسلامي، وجلاله في مضمار الهندسة المعمارية، و يؤكد في نفس الوقت تأثير الفن العربي على الفن الإيطالي نتيجة لاقامة العرب في صقلية، ويشير الأستاذ بامات إلى اقتباس من الهندسة والزخرفة الإسلاميتين في كنائس بعض دول أوروبا.

وفي مجال الطب و الصحة :

وننتقل الآن إلى ميدان آخر: ميدان الطب العربي وسوابقه حيث نجد الشباب العربي الإسلامي لا يكتفي بإهماله مطالعة صفحات التاريخ الإسلامي عن سوابق المسلمين الطبية - بل يضيف إلى جهله بحضارة الإسلام إنكاراً لها وإستهزاءً بها، ويخوض في حديث الطب العربي القديم، فيقف منه ذلك الموقف الذميم حيث يصفه بالتخريف والشعوذة.

لقد كان (الطب) خلال القرون الأولى بعد الهجرة النبوية جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية الإسلامية العامة.. وظهرت مؤلفات عربية طبية، وقام الأطباء المسلمون بدور فعّال في تقديم العلوم الطبية لدى الغرب إذ ظلت كتب الرازي- وابن سينا - وأبي القيس- وابن زهر: أساساً

للدراسات الطبية في المدارس الغربية خلال قرون عديدة. ومن أوسع المؤلفات الطبية العربية وأشهرها كتاب "الحاوي" وكتاب "المنصوري" للرازي: وكتاب "القانون" في الطب لابن سينا، الذي اشتهر بالعربية في روما في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، واتخذ أساساً لتدريس الطب في جامعات فرنسا وإيطاليا خلال ستة قرون كاملة.

وقد تحدث الرازي في كتاب "الحاوي" عن الحميات الطفحية، كالجدري، والحصبة. واستحدث الرازي في الصيدلة استعمال المسهلات الخفيفة، والحجامة في حالات الفالج، والماء البارد في حالات الحمى المستعصية، ولقطع نزيف الدم، واستعمال الكاويات والفتائل.

كما تحدث ابن سينا في كتاب "القانون" عن علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وعلم الأمراض وعلم المواد الطبية، وألف ابن سينا -أيضاً- كتاباً في علاجات أمراض القلب، ونظم قصائد في الطب وبلغت علاجا ته الطبية "760" علاجاً.

ويعترف العالم الفيزيولوجي "هاللر" بأن أبا القاسم خلف بن عباس القرطبي كان أهم جرّاح عربي، وكانت مؤلفاته مصدراً ومرجعاً لجميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر.

ويقول جوستاف لوبون- في كتابه حضارة العرب - إن مدرسة سالون أول مدرسة في أوروبا : مدينة بكثير من شهرتها للطب العربي.

وقد سبق المسلمون إلى الطب الوقائي الذي كان معروفاً-يومذاك- بعلم الصحة وهو علم يبحث في طرق الوقاية من الأمراض قبل حدوثها، كما سبقوا إلى تدريس الطب في المستشفيات نفسها التي كانت ملاجئ

للمرضى ومجالس للدراسة الطبية معا، فكان الطلاب يدرسون الطب بالقرب من أسرة المرضى أكثر مما يدرسونه في الكتب.

وهذا ما يتبع الآن في تدريس الطب الحديث، حيث يقضي الطلاب بعد خروجهم من الكلية عاماً في بعض المستشفيات للتمرّس على شئون الفحص وطرق العلاج، إلى جانب الأطباء السابقين المتوفقين، و قريباً من المرضى الذين يعالجونهم.

وهذا ما يجري عليه الطب الحديث – اليوم- حيث تقوم المستشفيات الخاصة لكل صنف من المرضى: كمرض السل، والجنون، والعيون الخ ... وكما نرى ونسمع الآن عن المستشفيات المتنقلة أو السيارة التي ترسل إلى القرى والمدن النائية لمعالجة مرضاها.

و لم يجهل العرب تأثير الجو الصحي في شفاء بعض الأمراض. ذلك ما نص عليه ابن رشد في "كلياته" من تأثير الإقليم في داء السل، فأوصى المسلمون بقضاء فصل الشتاء في بلاد الغرب، أو بلاد النوبة، وكذلك يفعل الأطباء اليوم إذ يختارون لإقامة مصحات السل الأماكن الصحية المناسبة، و للأمراض العقلية و العصبية أيضاً.

وحين عهد إلى الرازي أن يختار أفضل حي في بغداد لإقامة مستشفى عليه، لجأ إلى طريقة يعترف بها أصحاب نظرية الميكروب الحديثة، فقد علق قطعة من اللحم في كل حي من أحياء بغداد، وأعلن أن أصلح مكان لبناء المستشفى فيه هو المكان الذي يتأخر فساد قطعة اللحم المعلقة فيه، عن القطع الأخرى.

ومما أثبته جوستاف لوبون عن الطب العربي قوله : إن الطب العربي القديم كان يعتمد كثيراً على علم الصحة-أي الطب الوقائي- الذي أسلفنا

الإشارة إليه، وعلى المعالجة بالوسائل الطبيعية، ولن يكون أمر الطب المنتظر غير ذلك.

ولقد تحققت نبوءة جوستاف لوبون فعلا، فقد بدأ الطب الحديث يلجأ إلى الوسائل الطبيعية لمعالجة كثير من الأمراض، كالصوم، والنوم، الأول لإراحة أجهزة الهضم وتبرئتها من عللها وسمومها المتراكمة من كثرة الأكل ... والثاني لتهدئة الأجهزة العصبية وتنقيتها من المؤثرات الخارجية والداخلية بالتدرج حتى تعود طبيعية متزنة. وقد أنشئت مصحات لمعالجة المرضى بهذين العلاجين الطبيعيين "الصوم، والنوم" في كل من أوروبا وأمريكا، وقرأنا من أخبارها الكثير الممتع.

ومن المعترف به على ألسنة المؤرخين الفرنجة العصريين أن نسبة الوفيات على أيدي الأطباء العرب في القرن العاشر الميلادي أقل منها على أيدي أطباء القرن التاسع عشر.

ومن مأثورات الطب العربي - في علم الصحة أو الطب الوقائي كما نسميه الآن – ما قاله طبيب عربي في القرن التاسع الميلادي: " ولا شيء يضر بصحة الشيخ مثل الطاهي الماهر والفتاة الحسناء".

كما نقل عن الحارث بن كلدة الطبيب العربي انه قال : "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء. وعودوا كل جسم ما اعتاد".

ومن المناسب أن نضيف هنا : أن جماع الطب الوقائي هو قوله عليه الصلاة والسلام:"نحن قوم لا نأكل حتى نجوع و إذا أكلنا لا نشبع".
والحديث النبوي الآخر:"ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه" ونذكر إلى جانب ذلك قول الشاعر العربي :"ثلاث مهلكات للأنام" حيث جعل إحدى هذه المهلكات الثلاث :"إدخال الطعام على الطعام".

ومن الغرائب . بل من المصائب التي حلّت بالمسلمين في سنواتهم الأخيرة تقليدهم لمظاهر الحضارة الغربية تقليداً أعمى ... فأرسل شبابهم الذكور شعورهم كالإناث، وقصّ شبابهم الإناث شعورهن كالذكور . واستوى الجنسان في ارتداء المناطيل الضيقة والقمصان الملونة ... وأطالوا أظافرهم بصورة تجعلهم كالوحوش والطيور الكاسرة . . وظنوا ذلك زينة وجمالاً وتمدناً يجعلهم والغربيين والغربيات على قدم المساواة !

وتأتي منظمة الصحة العالمية سنة 1975م، فتعلن لها (يوماً) وتجعل ليومها شعاراً: قص الأظافر وتنظيفها .

وهكذا : بضاعتنا ترد إلينا، ونحن غافلون، أو بها جاهلون، بل لها مروجون .

إن (النظافة) في سائر جسد المسلم والمسلمة واجب إسلامي . شرّع لتحقيقه الوضوء خمس مرات يومياً، كما شرّع له الاغتسال أسبوعياً على الأقل، وربما أكثر من مرة حين تدعو الحاجة، وما أكثر ما تدعو .

كما شرّع الإسلام لتحقيق واجب النظافة: تقليم الأظافر لما يتراكم تحتها من أقذار وأوضار وميكروبات تنقل العدل من اليد إلى الفم إلى المعدة، ولمظهرها البشع-إذا طالت- الذي يشبه مظهر الوحوش والطيور الكاسرة.

وقد كرّم الله الإنسان، فخلقه في أحسن تقويم، وأمره بالنظافة والزينة، ونبهه نبيه ﷺ إلى: (أن الله نظيف يحب النظافة - جميل يحب الجمال).

ولو أن شبابنا العربي المسلم قرأ تاريخه لعرف أن المسلمين سبقوا ديكارت وأتباعه وطلابه - إلى نظريته التي يظنون أنها حديثة وأنها ابتكار غربي جديد.

ونحن المسلمين -لا نسمي هذه النظرية "مذهب الشك" كما سمّاها ديكارت وأتباعه والمتمدحون ببراعته -وبلاغته- وإنما نسميها "التوثيق". ذلك المبدأ الذي أخذ به علماء الحديث النبوي لمعرفة حقيقة الرواة، والتثبت من نص الحديث المروي، والاستيثاق من حفظ الراوي وإتقانه وضبطه لما يرويه، وحسبنا أن نشير إلى قواعد الجرح والتعديل لنعرف مدى تمسك رواة السنة النبوية بمبدأ "التوثيق".

ولم يكتف المسلمون بمبدأ "التوثيق" في رواية الحديث النبوي وحده باعتباره الأصل الثاني للشريعة الإسلامية - بل تجاوزوه إلى كتابة التاريخ، فقارئ كتب التاريخ العربية يلاحظ أن المؤرخين المسلمين يثبتون الأحداث والأخبار عن عدد من الرواة، كما هو الشأن في الحديث النبوي وإن كانت قواعد الجرح والتعديل لا تطبق كثيراً في رواية التاريخ، كما يلاحظ أن المؤرخين المسلمين يكتفون بتقرير الحقائق التاريخية دون أن يدخلوا فيها بآرائهم وأهوائهم، كما هو الحال في كتابة التاريخ عند الغربيين، الذين آخذوا المؤرخين العرب على نقلهم الأحوال التاريخية الموروثة إلى الأجيال التالية بدون نقد أو تعليق، واتهموهم لذلك بضيق الأفق والعجز عن النقد.

مع أن النظرية العربية في كتابة التاريخ هي الأصوب والأسلم من تداخل الآراء الخاصة في الأحداث والأخبار، مما يبتعد بالرواية عن مبدأ "التوثيق".

ولقد أيد النظرية العربية في كتابة التاريخ من المؤرخين الغربيين المحدثين (اكتون) و(كريتون) اللذان ناديا بعدم الإسراف في تفسير الحوادث -وأن يكتب التاريخ بطريقة موضوعية، مع مراعاة الأمانة في وصف الأحداث والبعد عن المبالغة والتهويل.

وتمشياً مع مبدأ "التوثيق" في كتابة التاريخ دعا ابن خلدون إلى فحص الحقائق والتأكد من صحتها، وتمحيص الأسباب التي أنتجتها.

ومن مظاهر "التوثيق" التي سبق إليها المسلمون الإجازات التي كان العلماء يمنحونها لتلاميذهم للتدريس أو الفتيا أو زاوية الحديث، بعد الاستيثاق من أمانتهم ومقدرتهم وصلاحهم.

وكما سبق المسلمون إلى مبدأ (التوثيق) الذي يطلقون عليه اليوم (الديكارتية) في تفسير القرآن ورواية الحديث النبوي وفي التاريخ -اتبعوا هذا المبدأ -أيضاً- في الاستعمالات اللغوية فقد راعى علماء اللغة العربية المسلمون عندما وضعوا أصولها وقواعدها ما راعاه علماء الحديث النبوي في كثير من الأمور، ومن ذلك تقسيمهم إياها إلى متواتر وآحاد وعنوا بالمتواتر :

لغة القرآن الكريم وما تواتر من السنة وكلام العرب، وكان هذا النوع هو الدليل القطعي واشترطوا للتواتر أن يبلغ عدد النقلة حداً لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب وأما غير المتواتر فهو ما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة و لم يتحقق فيه شرط التواتر.

ونضرب بعض الأمثلة من أئمة التوثيق – في المناهج الفكرية والعلمية الإسلامية – فالإمام الغزالي حجة الإسلام يقول في كتابه (المنقذ من الضلال) انه كان منذ شبابه في طلبه للعلم يتوغل في كل مظلمة،

ويتهجم على كل مشكلة، ويتفحص عقيدة كل فرقة، ويكشف أسرار مذهب كل طائفة، ولا يغادر باطنياً ولا ظاهرياً ولا فلسفياً ولا متكلماً ولا صوفياً ولا متعبداً، ولا زنديقاً إلا بعد أن يعرف دوافعهم ومعارفهم وأسرارهم وبراهينهم.

ويقول في كتابه (ميزان العمل) موجهاً نصيحته إلى طالب العلم: أطلب الحق بطريق النظر، ولا تكن في صورة أعمى مقلّد، وإنما خذ الحق أينما وجدته. وكان شعار الغزالي في عمله الفكري: لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله.

إن الدكتور عمر فروخ يقول تعليقاً على موقف الغزالي في تحصيل العلوم، والتفقه في الدين عن طريق الشك الباحث في حقائق الأمور: إن هذا الموقف الذي وقفه الغزالي من الدين لا نجده عند معاصريه من الأوروبيين. ولا عند الذين جاءوا بعده فما كان بالإمكان أن يفترض مفكر أوروبي أن النصرانية لا تثبت صحتها إلا بالعقل، كما فرض الغزالي أن الإسلام الموروث عن الوالدين لا قيمة له ما لم يقم في نفس كل مسلم مفكر برهان على صحته.

والمثال الثاني: هو الفيلسوف الإسلامي " ابن رشد" الذي يحثّ على النظر في الموجودات واعتبار ما تقتضيه منها شرائط البرهان، فما كان موافقاً للحق قبلناه، وما كان غير ذلك نبهنا إليه وحذرنا منه.

والمثال الثالث: أبو إسحاق النظام ... الذي يعتبر (الشك) أساساً للبحث ويقول: الشك أقرب إليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال "شك". أما "التجربة" فقد استخدمها النظام كما يستخدمها رجال الطبيعة

والكيمياء اليوم في معاملهم، وأجريت تجاربه على الحيوانات والطيور والأفاعي لمعرفة تأثير الخمر عليها !

فأين يقف (ديكارت) ومذهبه في الشك ... أمام هذه الثروة الضخمة الفخمة من سوابق الفكر الإسلامي في مذهب التوثيق : شكا فبحثاً فيقيناً ؟

ومن الشبهات و التهم التي يغالط بها شبابنا العربي المسلم، زعْمُ بعض المستشرقين -أمثال كارادي فو- انه لم يوجد في الشرق ذوق فطري للتعليم، ولا ميل للبحث عن المناهج العقلية، ولا رغبة في مسائل التربية، ولا اهتمام بأمر الطفولة . . الخ ...

ولإزالة هذه الشبهات من أذهان شبابنا، وأبطال هذه المزاعم — نذكر بعض ما دافع به مفكرونا وعلماؤنا، ثم نشير إلى شيء يسير من حقائق السبق الإسلامي في مجال التربية والتعليم.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق (إن المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم في ميدان التربية والتعليم، فقد كتب أئمتهم و مفكروهم في موضوع التربية والتعليم منذ القرون الأولى. وكانت لهم أنظار طريفة لم يخلق تطاول الزمن جدتها).

ويقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه (التربية في الإسلام): لا نزاع في أن العرب قد بلغوا في القرون الأولى الإسلامية درجة عظيمة من الحضارة ... انتشرت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولا حضارة بغير علم، ولا عمل بغير تعليم، ولا تعليم بغير نظام معين يرتب الصلة بين المعلمين والتلاميذ، ويفصل المناهج وطرق التربية وسائر ما يتصل بالتعليم من أدوات .

إذن فهناك تربية إسلامية، وتعليم إسلامي منذ القرون الأولى. بل هناك مؤلفات تربوية وضعها مفكرون إسلاميون أمثال ابن سحنون، والقابسي، والغزالي، وابن خلدون، وغيرهم، ولم يضعها المسيحيون العرب كما زعم المستشرق الفرنسي كارادي فو.

ويتحدث الدكتور الاهواني في كتابه عن رسالة (القابسي) في تعليم الأطفال، فيؤكد أنها من الحجج التي تذهب بالوهم الذي علق بالأذهان، وهو أن المسلمين لم يهتموا بتعليم الأطفال، وتثبت أن المسلمين ابتكروا في التربية آراء جديدة لم يصطنعوها عن العرب المسيحيين، أو ينقلوها عن التراجم اليونانية و اللاتينية .

ورسالة القابسي هذه ترفعه إلى قائمة قادة التربية، وتضعه في سجل المبرزين فهي ترسم منهجاً تربوياً رائعاً، يشمل واجب الآباء نحو أبنائهم- ومؤهلات المعلمين ومسئولياتهم- وطرائق تعليم الأطفال- ومراقبة سلوكهم -وتحديد العقوبات التي ينبغي أن تنزل بالمخالفين منهم مع النهي عن عقوبة الانتقام- وتعويد الأطفال على الاستقلال الشخصي- والرفق في معاملتهم. وقد دعا القابسي في رسالته إلى تعليم البنات في حدود طبيعتهن ووظيفتهن كما نادى (بالتعليم الإلزامي) فدل بذلك على تقدم الفكر الإسلامي التربوي، وعلى سبقه للحضارة العصرية.

وهناك سوابق تربوية وتعليمية في رسائل إخوان الصفا - وكتاب (تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق) لأحمد مسكويه، وفي كتاب (السياسة) لابن سينا- ومؤلفات الغزالي - وكتاب (تعليم المتعلم..) للزرنوجي- وفي مقدمة ابن خلدون الخ ...

لقد سبق ابن سينا إلى القول بمسايرة ميول الطفل ثم توجيهه إلى الصناعة والمهنة التي تتفق مع ميوله فقد ألزم معلم الطفل أن يسبر قريحته، ويزن طبعه، ويختبر ذكاءه ... ثم يختار له الصناعة التي تتفق مع استعداده. وهو رأي – كما يقول الدكتور الاهواني – من الآراء الحديثة في التربية وعلم النفس.

كما سبق الزرنوجي علماء التربية الحديثة إلى طريقة التكرار الموزع على عدة أيام لضبط المعلومات وتذكرها.

ونلاحظ- بصفة عامة - سبق القرآن الكريم إلى النظرية العلمية التجريبية التي ينسبونها إلى جون لوك الإنجليزي ثم لكوندياك الفرنسي، التي تعني: إن معارف الإنسان هي نتيجة لخبرته وحسه وتجربته، أي أن الإنسان يولد كصفحة بيضاء ثم يبدأ إحساسه بالمشاعر والمدركات المختلفة فتتكون عنده المقدرة على الانتباه والتذكر والحكم. وهذا ما سبق إليه القرآن في قوله: "**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيء، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**" وهذه مصادر الخبرة والمعرفة والتجربة.

- ويقول سيدوللو في كتابه (تاريخ العرب): اللي العلماء المسلمين يرجع الفضل في استخراج النهج العلمي ونقله إلى أوروبا في العصور الوسطى. ويعترف سانكيز البرونز :انه بينما كانت أوروبا في العصور المظلمة تنحدر في هوة البؤس والانحلال ... كانت الحضارة الإسلامية تزدهر وتنتشر في إسبانيا، وتلعب دورا فعالا في تطوير العلم والفلسفة والأدب في أوروبا المسيحية، وقد تجلى تأثيرها في عمالقة الفكر الأوروبي ،في العصور الوسطى كما يبدو ذلك واضحا في كتابات القديس توماس الإقويني، ودانتي.

أهمية التاريخ وتأثيره :

هذه قطوف قليلة من مؤلفات الغربيين التي تفيض بالاعترافات والشهادات الصريحة عن روعة الحضارة الإسلامية ورفعتها وأثرها العميق الوثيق في حضارة أوروبا الفكرية والعلمية .

فهل يصحو شباب الإسلام على نداء تاريخهم المجيد، فيهبوا هبة قوية لمدارسة ومذكراته، والانفعال بأمجاده، والتأثر بمنهاجه ،وإحياء دفائنه، وإضاءة مشاعله ؟

ذلك أن لكل (تاريخ) مهمة ورسالة ودورا ... وعلى كلّ شعب واجبا نحو تاريخه الذي بدونه لن تكون له شخصية ممتازة وكيان سليم البنيان.

والشعوب العربية الإسلامية - اليوم - تائهة في دوامات الحضارة الغربية الحديثة ومتعها ولذائذها المادية الوقتية. ولا بد لشعوبنا التائهة من موعظة وذكرى تشدها إلى تاريخها الحافل بالخلائل من كل فن وعلم وأدب ... وبالروح فوق ذلك كله ... الروح الذي بدأ الغرب يفتش عنه ويغزو كل خراب ودمار في حضارته إلى ففقدانه ... فقدان "الروح" في علوم هذه الحضارة وآدابها ومناهج العيش فيها.

يقول الأستاذ (علي بدو) في مجلة المعرفة السورية: بأسباب البقاء والنماء.

إن شخصية الأمة لا يمكن أن تكون شخصية سليمة البنيان إلاّ إذا كان لها تاريخها الحي ... يعيش فيها ويمدها .

أن تاريخنا العربي الإسلامي مدّون مكتوب ،ومعروض بأحدث الأساليب: وأجملها وأوضحها أن على شبابنا بخاصة وشعوبنا عامة أن تعود إلى تاريخنا) لتستمد منه القوة، وتنفعل بأمجاده، وتهتدي بهديه .

أن أجهزة الإعلام ومناهج التعليم في البلاد العربية والإسلامية مسؤولة مسؤولية كبرى عن إقناع شبابنا بالرجوع إلى تاريخه والاعتزاز به، والتأثر بمثله ومبادئه، وأن يعيش فيه ويحيا به ... ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

الهوامش:

[1] - رواه البخاري م.3 ص 113

[2] - رواه الإمام احمد مسند الإمام احمد م 1 ص 14

[3] - أمثال جوستاف لوبون - وحاك ويزلر - وسيدللو وغيرهم.

[4] - سيرة بن هشام ح 4 ص 14، أنظر تاريخ الإسلام لابن الأثير ص 95

[5] - المرجع نفسه

[6] - عاش فرويد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي

[7] - الحديث رواه الشيخان ويراجع كتابنا (دين ودولة) الفصل الرابع / 257

[8] - تراجع محاضرة (عبقرية الاقتصاد الإسلامي) ص 23

[9] - سورة النساء / 35و 130

[10] - تراجع محاضرة (المرأة في التشريع الإسلامي) ص79

[11] - تراجع محاضرة (مهمة الحاكم المسلم) في هذا الكتاب

[12] - أنظر مجلة الفكر الإسلامي العدد 13 ص14